75-960931

المورد

مجلة تراثية فصلية

تصدرها وزارة الاعلام - الجمهورية العراقية - المجلد الخامس - العدد الرابع ١٣٩٧-١٩٧٦

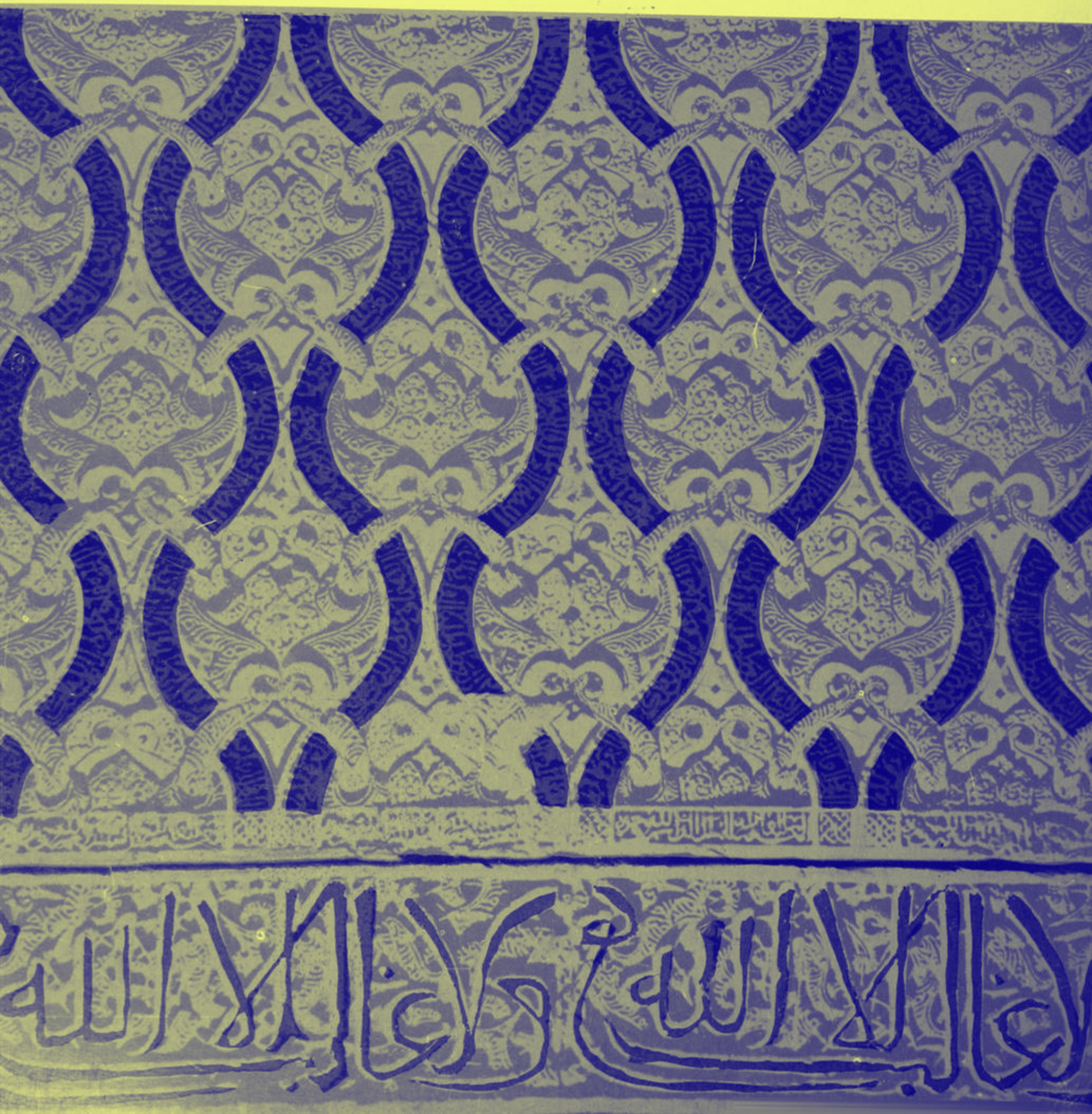

البصرة في عهد الوالي زياد بن أبيه

بقلم
هادي حسين حمود

مُصّرت البصرة ، كما هو معروف ، في سنة ١٤ هـ زمن الخليفة عمر بن الخطاب حيث اصبحت مركزا مهما من مراكز المسلمين في العراق . ثم اصبحت تابعة لحكم الامام علي بن ابي طالب بعد انتصاره في معركة الجمل سنة ٣٦هـ . ولما استشهد الامام علي سنة ٤٠ هـ ، وصالح الامام الحسن معاوية آلت البصرة الى حكم بني امية . وذكر الطبري انه « ... لما صالح الحسن بن علي ... معاوية اول سنة احدى واربعين ، وثب حمران بن ابان على البصرة فاخذها ، وغلب عليها ... فبعث (معاوية) بسر بن ابي ارطاة ... » (١) . ولا يذكر لنا الطبري مصير حركة « حمران » هذا . والظاهر ان هذه الحركة فشلت بتدبيل استيلاء « بسر » على البصرة وخطبته في مسجدها(٢) . ولم تظل ولاية « بسر » على البصرة ، حيث مكث واليا عليها لمدة ستة اشهر عزل بعدها عن البصرة ، حيث ولى معاوية عليها عبدالله بن عامر(٣) . وفي عهد هذا الوالي كانت حركة الخوارج بقيادة « الخطيم » و « وسهم بن غالب » تلك الحركة التي انتهت بالفشل بعد ان طلب هذان الامان من الوالي ، فكان لهما ما ارادا(٤) .

وبقي عبدالله بن عامر هذا واليا على البصرة حتى سنة ٤٤هـ حيث عزله معاوية(٥) . والظاهر ان ولاية عبدالله بن عامر للبصرة كانت غير حازمة ، ولم يكن بالوالي الكفوء ، وهذا الامر هو الذي ادى الى شيوع الفساد ، والعبث بالامن والنظام ، وكثرة اللصوص . ويذكر الطبري ان عبدالله هذا كان « ليننا كريما ، لا ياخذ على ايدي السفهاء ، ففسدت البصرة بسبب ذلك ... » كما انه كان « ... سهل الولاية ، لا يعاقب في سلطانه ، ولا يقطع لصا ، فقيل له في ذلك ، فقال : انا اتالف الناس ، فكيف انظر الى رجل قطعت اباه واخاه(٦) » . وقد سال معاوية احدهم عن البصرة ووواليها عبدالله فقال الرجل « ... اما اهل البصرة فقد غلب عليها سفهاؤها ، وعاملها ضعيف ... (٧) » .

عزل معاوية عبدالله بن عامر سنة ٤٤هـ ، وولى بعده الحارث بن عبدالله الازدي الذي لم يكن احسن من الوالي السابق . ويصور لنا « ابن الفهلاس » احوال البصرة في عهد هذا الوالي ، والوالي الذي جاء بعده فيقول « وفي ولايته كثر الفساد في البصرة وضعف امر الحكومة وكانت قد افترقت الاهالي الى شعب وفرق وجماعات . وكان معاوية يظهر كل التاثر ويوجس في نفسه الخوف من ذلك وكان قد ارسل الحارث ليصلح ما فسد من شانها فلم يمكنه ذلك ولم يلبث سوى اربعة اشهر فصرف عنها وولي عبدالله الازدي فلم يزد الامر في زمن هذا لها ارتباطا وكثر الفساد في الناس وزاد السلب والقتل والجرح ... ولم يبق للحكومة الا الاسم . ثم زاد الامر حتى منعت الحقوق الشرعية وجبايات الاموال ... (٨) » . ويقول « هارتمان » عن البصرة في هذا العصر « ... وكانت البصرة مهد الخلافات القبلية بين العرب ... وكان امير الولاة ملزمين على الدوام بحفظ النظام في تلك المدينة المزدحمة بالسكان وبين العرب الذين اختلط بهم عدد كبير من الموالي ... وكانت دسائس الخوارج من الاسباب التي اضيفت الى المنازعات القبلية وكانت عاملا في الاخلال بالامن بتلك المدينة(٩) » . ويقول « فلهاوزن » ان القوة في البصرة كانت بيد القبائل وليست بيد الحكومة وكان « السلب والقتل في الشوارع فاشيين في النهار البصر ... (١٠) » .

يتضح مما سبق ان الوضع في البصرة كان خطيرا ، وكان العبث والسرقة ، وعدم احترام الدولة وسلطتها من الامور التي انتشرت انتشارا فضيعا في البصرة . وكانت الحكومة تحاول السيطرة على زمام الامور ، ولكنها لا تستطيع الى ذلك سبيلا . وكانت كلما حاولت ابدال وال بآخر على امل ان يصلح الوضع

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ، ج٥ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص١٦٧ .
(٢) ايضا ، ص١٦٨ .
(٣) البلاذري ، احمد بن يحيى ، فتوح البلدان ، (بيروت ، ١٩٥٧) ، ص ٥٤٨ ، ٥٦٧ ، الطبري ، ١٧٠/٥ .
(٤) الطبري ، ١٧١/٥ .
(٥) ايضا ، ص٢١٢ .
(٦) ايضا ، ص٢١٢ .
(٧) ايضا ، ص٢١٢ .
(٨) ولاة البصرة ومتسلموها ، (بغداد ، ١٩٦٢) ، ص٦-٧ .
(٩) البصرة ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ج٣ ، (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص٦٧٠ .
(١٠) تاريخ الدولة العربية ، ترجمة محمد عبدالهادي ابو ريده ، (القاهرة ، ١٩٥٨) ، ص١١٢ .

هنالك ، فان الوالي الجديد لا يستطيع القيام بمهمته بصورة مرضية .

ان اهم الاسباب التي كانت تحول دون وضع حد لهذا العبث في تلك المدينة هو الصراع بين القبائل وما يولده من ثارات ومشاكل . فكان لابد ، والحالة هذه ، للبصرة ان تحكم من قبل وال يتمتع بصفات سياسية وادارية جيدة تمكنه من القيام بهذه المهمة . والحقيقة ان معاوية قد احسن الاختيار في تعيين « زياد بن ابيه » على البصرة سنة ٤٥هـ(١١) ، فضبط البلاد ، وارهب الناس حتى جعل البصرة تخضع خضوعا تاما للدولة الاموية زمن ولايته .

تولي زياد للحكم والخطوط العامة لسياسته

ما كاد زياد ان يصل البصرة حتى خطب في الناس خطبته المعروفة بالبتراء . وسنحاول فيما يلي ان نقتطف بعض العبارات التي وردت في هذه الخطبة ، لنبين من خلالها سياسته في ادارة هذه المدينة .

قال ، بعد ان بين ما كانت عليه البصرة من فساد : « ... اني رايت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله ، لين من غير ضعف ، وشدة من غير جبرية وعنف . واني اقسم بالله لآخذن الولي بالولي ، والمقيم بالضاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد ، او تستقيم لي قناتكم . ان كلبة المنبر تبقى مشهورة ، فاذا تعلقتم علي بكلبة فقد حلت لكم معصيتي ... اياي ودلج الليل ، فاني لا اوتي بمدلج الا سفكت دمه ... واياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا اجد احدا ادعا بها الا قطعت لسانه . وقد احدثتم احداثا لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوما غرقته ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف يدي وأذاي ، لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين اقوام إحن [بعضاء] ، فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي ... اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعا ، ولم اهتك له سترا ، حتى يبدي لي صفحته ، فاذا فعل لم اناظره ... انا اصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذاده ... فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ... واعلموا اني مهما قصرت عنه فاني لا اقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن ابانة ولا مجمرا لكم بعثا [اي انه لا يبقيهم في ارض الاعداء ويمنعهم من العودة الى اهليهم] ... وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امريء منكم ان يكون من صرعاي (١٢) . »

ان خطبة زياد هذه انما هي في حقيقة الامر برنامج عمل التزم به نفسه امام اهل البصرة . وقد بين في هذه الخطبة ، بوضوح سياسته في هذا الصدد ، مبينا انه يتوخى من هذه السياسة العدل والانصاف ، ونسيان الماضي ، وفتح صفحة جديدة . وفي هذه الخطبة يمكن ان نتبين ان زيادا جعل الكل مسؤولين عما يحدثه الفرد ، وذكر انه سوف يطبق هذه السياسة بكل جدية وحزم ، فان كذب فيما قال ، وكذبة المنبر مشهورة ، فلا طاعة للقوم عليه . وفي هذه الخطبة احدث زياد لاول مرة في التاريخ ما يسمى بمنع التجول ليلا . وقد طبق هذه الفكرة بصرامة فيما بعد(١٤) . والظاهر ان زيادا حينما حذر القوم من « دعوى الجاهلية » اراد ان يقلع هؤلاء عما الفه العرب من مفاخرات ومشاكل وثارات وعصبيه ، تلك الامور التي كانت شائعة في العصر الجاهلي . وقد ذكر زياد انه احدث عقوبات جديدة للامور التي كانت شائعة في البصرة في ذلك العهد تلك التي لم تكن مالوفة قبلا ولم تكن لها عقوبات . ويقول الشيخ محمد الخضري « ... والمطلع على الطريقة التي حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة اعلان حكم عرفي ... » ثم يقول معلقا على اخذ المقيم بالضاعن والمقبل بالمدبر وغيرها من اعمال زياد انها لم تكن جارية « ... على القانون الشرعي الذي يقصر المسئولية على المجرم وانما ذلك شيء يلجأ اليه الاداريون لتخفيف الام الجرائم وارهاب الناس ... وفائدة ذلك في الاغلب وقتية ... » (١٥) .

بعد ان بين زياد سياسته لاهل البصرة عين على شرطته « عبدالله بن حصن » ، ثم امهل الناس حتى وصل خبر خطبته الى الكوفة ، ثم بدا بعد ذلك بتطبيق سياسته فيما يتعلق بمنع التجول في الليل . ويقول الطبري في هذا الصدد « ... وكان يؤخر العشاء حتى اخر من يصلي ثم يصلي ، يامر رجلا فيقرا سورة البقرة ومثلها ، يرتل القرآن ، فاذا فرغ امهل بقدر ما يرى ان انسانا يبلغ الخربة(١٦) ، ثم يامر صاحب شرطته بالخروج ، فيخرج ولا يرى انسانا الا قتله(١٧) » .

اعمال زياد الادارية

ذكرنا ، فيما سبق ، الخطوط العامة لسياسة الوالي زياد في البصرة من خلال خطبته « البتراء » وسنحاول فيما يلي ان نتلمس ، من خلال هذه السياسة ، الاعمال الادارية التي قام بها هذا الوالي .

اعتمد زياد في ادارة المصر على الشرطة اعتمادا كثيرا ، فهم الذين يضمنون له تطبيق الاوامر ، ويعاقبون الجناة والمتمردين على سلطته ، ويطاردون قطاع الطرق واللصوص وكانت اغلب

---

(١١) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢١٧ . ومن الجدير بالذكر هنا ان زياد ابن ابيه كان من انصار الامام علي ، وقد تمرد على معاوية بعد وفاة علي فلم يزل به معاوية حتى اقنعه بالتعاون معه ، وقد استلحقه في نسبه ، وسماه « زياد بن ابي سفيان » ، ثم ولاه على البصرة .

(١٢) سميت هذه الخطبة البتراء لان زيادا ، كما يذكر المؤرخون، لم يحمد فيها الله ولم يصلي على رسوله . وقد ذكرت هذه الخطبة في كثير من كتب الادب والتاريخ . ويرى اليعقوبي، التاريخ ، ج٢ ، (النجف ، ١٣٥٨) ، ص٢٠٥ ان هذه الخطبة القيت في الكوفة .

(١٣) الجاحظ ، عمرو بن بحر ، البيان والتبيين ، ج٢ ، (القاهرة ، ١٩٦١) ، ص٦١-٦٥ ، الطبري ٥/٢١٩-٢١ .

(١٤) روى الطبري : ٥/٢٢٢ . كيف قتل زياد اعرابيا كان قد القي عليه القبض ليلا بالرغم من اقتناع زياد بما قدمه الاعرابي من عذر .

(١٥) محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ، ج١ ، (القاهرة ، ١٣٧٦هـ) ص١٠٧-١٠٨ .

(١٦) هي ناحية من نواحي البصرة . راجع : الحموي ، ياقوت، معجم البلدان ، ج٢ ، (بيروت، ١٩٥٦) ، ص١٠٧-١٠٨ .

(١٧) الطبري ، ٥/٢٢٢ .

اعمال هؤلاء محصورة في داخل البلد(١٨) . وقد اعطى زياد سلطة كبيرة للعرفاء(١٩) في ادارة المصر فاضعف بذلك سلطة شيوخ القبائل ، ولذلك جعل « ... كل عريف مسؤولا عن كثير مما يحدث في عرافته ، فهو يوزع العطاء ويزيد فيه او ينقص ، وهو يسجل موت من يموت ومولد من يولد ، وهو يراقب مثيري الفتن ويبلغ عمن يفسد النظام ، وهو يدعو الجند الى الجهاد ... (٢٠) » .

وكان زياد يعتمد ، في ادارة البصرة ، على عدد من اصحاب رسول الله منهم « عمران بن حصين » الذي ولاه قضاء البصرة ، والحكم بن عمرو الغفاري الذي ولاه على خراسان ، وكانت هذه تابعة لحكم زياد . وكذلك استعان في ادارة البصرة داخليا بسمرة بن جندب وانس بن مالك (٢١) . اما سياسة زياد في ضبط المدينة فانه عمل على تنظيمها من جديد، فقسمها الى « ... خمس قبائل كبيرة يسمى كل منها خمسا ويشمل على عدد من العشائر، ويراسه رئيس له سلطان واسعة ... » ، كما انه ادخل في هذه التقسيمات الجديدة بعض الاعاجم ، وبعض العشائر التي لا تمت بصلة لتلك القبائل وهذا امر اراد به زياد التوازن بين القبائل(٢٢) . ومن ناحية علاقة هذا التنظيم الاداري بالمسائل المالية ، جعل زياد « ... كل عشيرة وحدة مالية وعين لها عريفا مسؤولا عن تسلم العطاء وتوزيعه على افراد عرافته ، وبذلك جعل التنظيم المالي مطابقا ومنسجما مع التنظيم الاجتماعي ... (٢٣) » . ولما ولى زياد « الربيع بن زياد »على خراسان سنة ٥١ هـ حول معه « ... من اهل المصرين [الكوفة والبصرة] زهاء خمسين ألف بعيالاتهم ... (٢٤) » . ويرى الاستاذ شكري فيصل ان عمل زياد هذا « ... كان عملا منظما يستر وراءه كثرة من الاهداف البعيدة ، سواء في ذلك تامين ما كان من فتوح او اقلمة هذه القبائل حتى تستطيع ان تنفذ الى الفتوح الاخرى التي يستشرف اليها او تعويض ما كان من خسائر الجند في المواقع المتصلة او نشر بذور التعريب والاسلام او كل ذلك جميعا (٢٥) » . ويرى الدكتور صالح العلي ان اجراء زياد هذا كان له علاقة بمشكلة تناقص دخل المدينة(٢٦) . وارى ان عمل زياد هذا له علاقة وثقى بسياسته التي تؤكد دوما على كسر شوكة القبائل والتخلص من المعارضة ، اضافة الى الاسباب المذكورة سابقا .

وبصدد ضبط زياد للامور الادارية ، وحصر المسؤولية قال « دلوني على صلحاء كل ناحية ومن يطاع فيها . فدلوه ، فضمنهم الطريق وحد لكل رجل منهم حدا . فكان يقول : لو ضاع حبل بيني وبين خراسان عرفت من آخذ به (٢٧) » . والظاهر ان تمكن زياد من ادارة البصرة يعود الى سببين ، الاول ما تمتع به من حنكة ادارية وحسن دراية في مسائل الادارة . والسبب الثاني يعود الى الشدة التي استعملها في معاقبة المخالفين لسياسته ، وتطبيق ما كان قد بينه في خطبته « البتراء » .

وقد ذكر كثير من المؤرخين وبعض الشخصيات الاخرى ، ما كان يتمتع به هذا الوالي من صفات ومؤهلات ، يقول الخليفة عمر بن عبدالعزيز في زياد « سعى لاهل العراق سعي الام البرة وجمع لهم الدرة (٢٨) » ، وقد وصف من بين دهاة العرب، الاربعة ، وهم معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، بانه « ... لكل صغيرة وكبيرة (٢٩) » . وفي رايي ان كتابه الذي ارسله الى معاوية جوابا له حول تعيين « يزيد » ابنه على الخلافة ليدل دلالة واضحة على عقل راجح ، وواقعية سياسية لا تعرف المجاملات في مثل تلك الامور الخطيرة . يقول في كتابه الى معاوية « ... فما يقول الناس اذا دعوناهم الى بيعة يزيد وهو يلعب بالكلاب والقرود ويلبس المصبغ ويدمن الشراب ويمشي على الدفوف وبحضرتهم الحسين بن علي وعبدالله بن عباس وعبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر ، ولكن تامره يتخلق باخلاق هؤلاء حولا او حولين فعسانا ان نموه على الناس ... (٣٠) » : اما الشدة التي استعملها زياد في القضاء على الفوضى وعلى المعارضين فانه « ... ما زال يقيم امر السلطان ويجرد السيف حتى خافه الناس خوفا عظيما . وتركوا ما كانوا عليه من المعاصي الظاهرة ... (٣١) » . وكان زياد « ... اول من سير بين يديه بالحراب ، ومشي بين يديه بالعمد ، واتخذ الحرس رابطة خمسمائة ... فكانوا لا يبرحون المسجد . (٣٢) »

ان اجراءات زياد سالفة الذكر جعلته حقا يفلح « ... في ان يقر الامن في نصابه ، لا في البصرة وحدها ، بل في الولايات الفارسية ايضا ، وحتى في الصحراء ، على نحو لم يعهده الناس من قبل ... (٣٣) » . وتلك ميزة لم تتوفر فيمن سبقه من الولاة على البصرة .

لقد استطاع زياد ان ينجح في هذا المجال بسبب عدة عوامل « ... منها دهائه وعبقريته واستغلاله الخصومات والنزعات القبلية كما ساعده ان المعارضة العراقية لم تتبلور وتسر في اتجاه معين ... (٣٤) » . اضافة الى ذلك انه اعتمد على الازد ، فيما يظهر ، في بعض المسائل الادارية والمالية . ويقول الجاحظ « وكان زياد حول المنبر وبيوت المال والدواوين الى الازد وصلى بهم ... (٣٥) » .

---

(١٨) العلي ، صالح احمد ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري ، (بيروت ، ١٩٦٩) ، ص١١٣ .

(١٩) العريف هو القيم بامور القبيلة والجماعة والذي يتعرف الامير منه على احوالهم . راجع : الزبيدي ، تاج العروس، ج٦ ، (القاهرة بدون تاريخ) ص١٩٥ .

(٢٠) زكي ، احمد كمال ، الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري ، (دمشق ، ١٩٦١) ، ص٨١ .

(٢١) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٢٤ .

(٢٢) العلي ، المصدر السابق ، ص٥٣ .

(٢٣) ايضا ، ص٤٩ .

(٢٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص٥٧٧ .

(٢٥) المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، (بيروت،بدون تاريخ)، ص٢٠٦ .

(٢٦) العلي ، المصدر السابق ، ص٤٩ .

(٢٧) ابن عبد ربه ، احمد بن علي ، العقد الفريد ، ج٥ ، (القاهرة ، ١٩٦٥) ، ص٧ .

(٢٨) ايضا ، ص٧ .

(٢٩) ايضا ، ص٧ .

(٣٠) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ١٩٦/٢ .

(٣١) ابن كثير ، اسماعيل عمر ، البداية والنهاية ، ج٨ ، (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص٢٩ .

(٣٢) الطبري ، المصدر السابق ، ٢٢٤/٥ .

(٣٣) فلهاوزن ، المصدر السابق ، ص١١٨ .

(٣٤) الراوي ، ثابت اسماعيل ، العراق في العصر الاموي من الناحية السياسية والادارية والاجتماعية ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص١٥٠ .

(٣٥) البيان والتبيين ، ج٢ ، ص٢٧١ .

والظاهر ان معاوية وثق في زياد كثيرا ، فقال لاحدهم ، وقد ساله ان يوليه بعض ما كان بيد زياد « زياد اعلم بثغـــورة » و « زياد اعلم بشرطته ... (٣٦) » .

وقد اجمل احد المؤرخين اعمال زياد التي ابها علاقة بسياسته الادارية فقال « وكان زياد اول من شد امر السلطان ، واكد الملك لمعاوية ، والزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيف ، واخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وخافه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى امن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل والمراة فلا يعرض له احد حتى ياتيه صاحبه فياخذه ، وتبيت المراة فلا تغلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم يُر مثلها ، وهابه الناس هيبة لـــم يهابوها احدا قبله ، وادر العطاء ... (٣٧) » .

وكان هم زياد ، وشغله الشاغل ، هو تثبيت ملك بني امية ، واطاعة اوامر معاوية ، ولكن هذه الطاعة لم تكن طاعة عمياء حيث كان لهذا الوالي راي في بعض الامور ، كما ذكرنا سابقا . وفي ادارته للبصرة كان همه الاول ايجاد مدينة آمنة مطيعه ، وتوفير العدل فيها ما امكن . ولعل خير ما اختم به كلامي عن سياسة زياد الادارية هو ايراد قول « فلهاوزن » في زياد وسياسته . يقول « ... فهو [زياد] بعد ان صالح الاسرة الحاكمة لم يعرف الخضوع لسيادة غير السيادة القائمة بالفعل . وعلى هـــذا الاساس نهض لاقامة النظام في الجماعة وايجاد الرخاء في الحيـاة عامة والزام الناس القيام بواجب الطاعة المفـروض عليهـم كمواطنين . وهو وان كان ، تمشيا مع العادة السائدة ، لـم ينس نفسه ، بل جمع اموالا كثيرة ، فانه لم يجعل همه استعمال سلطانه وسيلة في استغلال الولايات التي عهدت اليه ادارتهـا استغلالا يحقق اغراضه الخاصة . وكان يتخذ موقفا فـــوق الاحزاب وفوق القبائل ، وكان يشعر تمام الشعور بانه عامـل من عمال الدولة . وكان جادا كل الجد في القيام بالواجبات التي يقتضيها منصبه والشعور به ، غير مبال بالعافية لنفسه ، وغير مبال بما جاء في القرآن [وهو خروج زياد عما جاء به الشـرع وذلك لتطبيق سياسته التي كان يريدها كما يقول مترجم كتاب فلهاوزن] الذي استطاع كل حاكم ان يستنبط منه السياسة الذي استطاع كل حاكم ان يستنبط منه السياسة التـــي تناســـبه ... (٣٨) » .

تغييرات زيـــاد في مسجد البصرة

كان المسلمون قد بنوا مسجد البصرة ودار الامارة فيها في امارة ابي موسى الاشعري فكان الامام « ... اذا جاء للصلاة بالناس تخطاهم الى القبلة على حاجز(٣٩) ، فخرج عبدالله بن عامر ذات يوم من دار الامارة يريدالقبلة ، وعليه جبة خز دكناء ، فجعل الاعراب يقولون : على الامير جلد دب (٤٠) » . والظاهـر ان تخطي الناس بهذا الشكل كان يضايق الولاة والناس معا . وكان المسجد غير مبلط فكان الناس اذا انتهوا من الصلاة نفضوا ايديهم من التراب(٤١) ، فلما تولى زياد امارة البصرة « ... زاد في المسجد زيادة كبيرة وبناه بالآجر والجص وسقفه بالساج ، وقال لا ينبغي للامام ان يتخطى الناس فحول دار الامارة ... الى قبلة المسجد ، فكان الامام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة ... (٤٢) » ، وبذلك تخلص زياد ، ومن جـاء بعده ، من مشكلة تخطي الناس . اما بالنسبة الى مشكلة نفض الايدي ، فان زيادا كان يخشى ان تصبح سنة ، فامر بتوسيع المسجد وجمع الحصى والقائه في صحن المسجد(٤٣) . وامـر ببناء منارة للمسجد(٤٤) ، وكذلك مقصورة(٤٥) . والظاهـر ان زيادا بني اعمدة في المسجد فكان هذا تطورا في عمارة المساجد في ذلك الوقت . يقول البلاذري « ... وجعل زياد حين بنى المسجد ودار الامارة يطوف فيها وينظر الى البناء ، ثم يقـول لمن معه من وجوه اهل البصرة : اترون خللا ، فيقولون : ما نعلم بناءا احكم منه ، فقال : بلى هذه الاساطين التي على كل واحدة منها اربعة عقود ، لو كانت اغلظ من ساتر الاساطين(٤٦) » .

زيـــاد والزراعـــة

لا نعلم مدى اهتمام زياد بامور الزراعة ، واصلاح الارض ، وشق الانهر والترع . ولكن بعض النصوص التي بايدينا تساعدنا على تفهم بعض آراء زياد في هذا الصدد ، فقد نسب اليه انه قال « احسنوا الى المزارعين فانكم ماتزالون سمانا ماسمنوا(٤٧) ». وكان « ... يقطع الرجل القطيعة ويدعه سنتين ، فان عمرها والا اخذها منه ... » وكان قد اقطع بناته ستين جريبـا « وكذلك كان يقطع العامة ... (٤٨) » ، كما انه كان يهتـــم بالصهاريج ويبيحها للناس (٤٩) .

ان هذه الامور تدل دلالة واضحة على اهتمام الوالـي بمشاكل الارض ، ومحاولة استثمارها للفائدة العامة .

مظاهر اخرى لسياسة زيـاد الادارية

كان زياد قد اعتبر من دهاة العرب الاربعة الذين كانت لهم آراؤهم الخاصة في السياسة . وقد بينا بعض تلك الآراء فيما سبق . وقد اضاف اليعقوبي بعض ما كان يتمتع به زياد مـن مواهب وقدرات ادارية اخرى ، يقول في هذا الصدد « وكـان لزياد دهاء ورجلـة وصـولة وكان اول من دون الـدواوين ، ووضع النسخ للكتب ، وافرد كتاب الرسائل من العرب والموالي المتخصصين وكان زياد يقول ينبغي ان يكون كتاب الخراج مـن رؤساء الاعاجم العالمين بامور الخراج . وكان يقول ملاك السلطان اربع خلال ، العفاف عن المال ، والقرب من المحسن ، والشـدة على المسيء ، وصدق اللسان ... وكان زياد يقول ينبغي للوالي ان يكون اعلم باهل عمله منهم بانفسهم ... (٥٠) » . واذا استثنينا رأي اليعقوبي القائل بان زيادا كان اول من دون الدواوين ، حيث من المعروف ان الخليفة عمر بن الخطاب كان اول من دون الدواوين في الاسلام ، فان اراء زياد الادارية والمالية ، التي اوردها اليعقوبي ، تاتي لتبرهن على عبقرية فائقة ، ونظرة سليمة واقعية لما كان يتطلبه وضع العرب السياسي والاداري في

(٣٦) ايضا ، ص٢٦٠ .
(٣٧) الطبري ، ٥/٢٢٢ .
(٣٨) تاريخ الدولة العربية ، ص١٢٤–١٢٥ .
(٣٩) يقول محققا كتاب « فتوح البلدان » للبلاذري ان الحاجز المذكور هي ارض مرتفعة ووسـطها منخفـض ، ص٤٨٤ (الهامش) .
(٤٠) البلاذري ، المصدر السابق ، ص٤٨٤ .
(٤١) ايضـا ، ص٣٨٩ .
(٤٢) ايضا ، ص٤٨٤ ، ياقوت ، المصدر السابق ، ص٤٣٣ .
(٤٣) ايضا ، ص٣٩٠ ، وكذلك ياقوت ، ص٤٣٤ .
(٤٤) ايضا ، ص٤٨٥ .
(٤٥) ايضا ، ص٤٨٥ .
(٤٦) ايضا ، ص٤٨٤–٥ .
(٤٧) الدينوري ، ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ص١٠ .
(٤٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص٥٠٦ .
(٤٩) ايضا ، ص٥١٦ .
(٥٠) تاريخ اليعقوبي ، ٢٠٩/٢ .

تلك الفترة ، ولتبرهن كذلك على حصافة في الراي وتبحر في الامور . وعلى كل حال فان سياسة زياد كانت تقتضي دوما ان يكون العاملين معه في الادارة من الاقوياء والامناء(٥١) .

اما ادارة زياد لمدينة الكوفة فهي خارجة عن نطاق هذا البحث(٥٢) ، وكلما يمكن ان يقال عنها انها كانت مشابهة من حيث الجوهر لسياسته التي ساس بها اهل البصرة ، ولعل اوضح ما يقال في هذا الصدد هي استطاعة هذا الوالي القضاء على تحديات الكوفيين لمعاوية تلك التحديات المتمثلة في زعيم الشيعة حجر بن عدي .

وكان زياد لما ضمت اليه الكوفة « ... يشتو بالبصرة ويصيف بالكوفة ، ويستخلف على البصرة سمرة بن جندب ، وعلى الكوفة عمرو بن حريث ... (٥٣) » . وكان « سمرة » حينما ينوب عن زياد في ادارة البصرة يرتكب اعمالا في غاية الشدة مع السكان(٥٤) . توفي زياد في الكوفة سنة ٥٣ هـ ودفن في الثوية خارج المدينة (٥٥) .

زياد والمعارضة

كان الشيعة والخوارج من ابرز معارضي الحكم الاموي ، فكان على زياد ، وهو والي الامويين على البصرة ، ان يكافح هاتين الجماعتين ، وان يخضعهما للحكم الاموي .

الظاهر انه لم تكن هنالك علاقة سيئة ، وبشكل علني ، بين زياد والشيعة في البصرة . يقول فلهاوزن في هذا الصدد « ... لم يكن للشيعة في الجملة كبير شان ، وهم لم يخلقوا المتاعب ، وكان لرئيسهم شريك ابن الاعور الحارثي مكان كريم عند زياد ... (٥٦) » . اما الاحنف بن قيس ، الذي يعده بعض العلماء من الشيعة(٥٧) ، فكان موقفه من زياد ، ومن الحكم الاموي يدل على عدم الرغبة في الاصطدام بالدولة ، وقد قال لزياد بعد ان انتهى من خطبته البتراء « ... قد قلت فاحسنت ايها الامير ، والثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وانا لن نثني حتى نبتلى ، فقال زياد : صدقت (٥٨) » . ومما يدل على اتجاه الاحنف هذا ، وهو عدم الاصطدام بالدولة ، هو ان معاوية منحه مبلغا كبيرا من المال(٥٩) . والظاهر ان الاحنف قد اصبح يتمتع برعاية الوالي وعنايته ، فقد اراد زياد يوما ان يوليه ثغر الهند ، وعندما اعترض معاوية على ذلك ، كتب زياد الى معاوية كتابا يقول فيه « ... ان الاحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد ما لا تنفعه الولاية ولا يضره العزل ... (٦٠) » .

واذا كان زياد قد القى القبض على عبدالله بن هاشم بن عتبة بن ابي وقاص ، وارسله مقيدا الى الشام ، حسب طلب الخليفة (٦١) ، فان هذا لا يدل على تمرد منه او من ابيه على الدولة ، وانما هي بقضاء قديمة ترجع الى زمن الامام علي بن ابي طالب ، وموقف هاشم العدائي من معاوية (٦٢) .

ان هذه الامور وغيرها تدل على ان الشيعة لم يكن لهم موقف عدائي سافر من الدولة الاموية في البصرة زمن ولاية زياد . وفي اعتقادي ان هذا الموقف يعود الى عدة اسباب منها :

١ ـ ان الشيعة كانوا قلة في البصرة . وقد عرف عن البصرة ذلك حتى في العصور التي تلت عصر الوالي زياد(٦٣) .

٢ ـ ان زيادا كان يعرف الشيعة في البصرة جيدا ، فقد كان من اصحاب الامام علي ، وهو شخصية معروفة في البصرة زمن علي ، فقد تولى فيها عدة مناصب ، واشتغل كاتبا عند ابي موسى الاشعري وعند عبدالله بن عامر ، وابن عباس ، وغيرهم ممن تولى حكم البصرة (٦٤) ، الامر الذي جعله مطلعا على اراء كثير من الناس واهوائهم السياسية ، وبطبيعة الحال كانت معرفته بالشيعة ، وهم اصحابه السابقون ، اكثر من بقية الفرق والجماعات الاخرى . وفي رايي ان معرفة زياد بالشيعة ، واطلاعه على اسماء زعمائهم ، جعل هؤلاء يركنون الى الهدوء والسكينة في عهدة اضافة الى السبب الاول ، وهو المهم ، كما ارى .

وكانت البصرة ، حينما قدم اليها زياد واليا ، تموج بالخوارج في داخل المدينة وفي خارجها ، وكانت الغارات التي يشنها الخوارج « ... الى ذلك العهد بحرب العصابات اشبه ... وكانوا [الخوارج] يتحركون فجاة لا يتوقعهم احدا ويكتسحون البلاد ، ويباغتون المدن غير المحصنة . ثم ينسحبون مسرعين تخلصا من مطاردة جيش الدولة لهم . وكانت المواضع التي يتجمع فيها الخوارج هي البطائح حول البصرة ... (٦٥) ». ولم يكن هذا الامر خافيا على زياد ، فقد اوضح بعض جوانبه في خطبته « البتراء » ، كما ان زيادا كان يعرف جيدا قوة الخوارج، وما كانوا يتمتعون به من روح معنوية ، وقوة في الحرب ، ولعل اهم ما يدل على ذلك قول زياد لرداس بن ادية احد زعماء الخوارج ، وقد اعترض على ما جاء في خطبة زياد البتراء ، قوله « ... انا لا نجد الى ما تريد انت واصحابك سبيلا حتى نخوض اليها الدماء ... (٦٦) » .

كان زياد قد سلك سلوكا فيه كثير من الحكمة ورجاحة العقل في محاولته القضاء ، او الحد ، من قوة الخوارج « ... فكان يقتل المعلن ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة ... (٦٧) » . هذا من جهة ، واما من جهة اخرى فانه كان يحاول ان يجلب الاقوياء والمتمردين من الخوارج

(٥١) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص٥٥ .
(٥٢) كان زياد قد تولى ادارة الكوفة اضافة الى البصرة سنة (٥٠)هـ وذلك بعد وفاة المغيرة بن شعبة والي الكوفة حيث ضمها معاوية اليه .
(٥٣) الاصفهاني ، ابو الفرج ، الاغاني ، ج١٦ ، (بيروت،١٩٥٦)، ص٤ .
(٥٤) الطبري ، ٥/٢٣٦-٢٣٧ . (٥٥) ايضا ، ص٢٨٨-٢٨٨ .
(٥٦) تاريخ الدولة العربية ، ص١٢٢ .
(٥٧) كاشف الغطاء ، محمد حسين ، اصل الشيعة واصولها ، (النجف ، ١٣٥٥) ، ص٥٧ .
(٥٨) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٢١ .
(٥٩) ايضا ، ص٢٤٢ .
(٦٠) ابن قتيبة ، المصدر السابق ، ص٢٢٧ .
(٦١) المسعودي ، علي بن الحسين ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٣ ، (القاهرة ، ١٩٤٨) ، ص١٧ .
(٦٢) ايضا ، ص١٧ .
(٦٣) راجع اقوال محمد بن علي بن عبدالله بن عباس لرجال الدعوة العباسية في كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة ، ج١ ، (القاهرة ، ١٩٦٣) ، ص٢٠٤ .
(٦٤) ابن قتيبة ، المعارف ، (القاهرة ، ١٩٣٤) ، ص١٥١ .
(٦٥) دلافيدا ، ليفي ، الخوارج ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، ج٨ ، (القاهرة ، بدون تاريخ) ، ص ٧٢٤ .
(٦٦) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٢١ .
(٦٧) المبرد ، محمد بن يزيد ، الكامل في الادب واللغة ، ج٣ ، (القاهرة ، ١٩٣٧) ، ص١٠٠٤ .

الى حظيرة الدولة بالاموال والوظائف . وقد عين احد الخوارج الاقوياء ، الذين كان يخشى منهم ، بوظيفة والي جندي سابور ، فكان هذا يقول « ما رايت شيئا خيرا من لزوم الطاعة والتقلب بين اظهر الجماعة ... (٦٨) » . كما ان زيادا عمد الى مجموعة من الاجراءات الحازمة التي استطاع بواسطتها القضاء على الخوارج . ولعل اهم هذه الاجراءات ، واشدها نفعا في مكافحة هؤلاء هي ما يلي :

١ ـ ان زيادا جعل القبائل مسؤولة عما يحدثه افرادها من تمرد، وقال مخاطبا رؤساء القبائل بقوله « الا بنهي كل قوم سفهاءهم ؟ ... فكانت القبائل اذا احست بخارجية منهم شدتهم [وثاقا] واتت بهم زيادا . فكان هذا احد ما يذكر من صحة تدبيره ... (٦٩) » .

٢ ـ كانت تخرج مع الخوارج بعض النساء ، وربما يكون في هذا الامر ما يدفع الرجال الى الاستماتة في القتال خوفا من العار ، وحدث مرة من المرات ان اخرج الخوارج معهم امراة فظفر بها زياد فقتلها ، ثم عراها « ... فلم تخرج النساء بعد على زياد ، وكن اذا دعين الى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا ... (٧٠) » .

هذه اهم الاساليب التي اتبعها زياد في مكافحة الخوارج ، وهي اساليب جاءت بنتائج ايجابية .

ثورات الخوارج في منطقة البصرة زمن زياد

بالرغم من الاجراءات الصارمة التي استعملها زياد في مكافحة خطر الخوارج على ولاية البصرة ، فقد تعرضت منطقة البصرة خلال ولايته ، الى ثورتين قام بها الخوارج ضد هذا الوالي .

١ ـ ثورة سهم والخطيم

كان سهم والخطيم قد قاما بثورة ضد الحكم الاموي في البصرة زمن الوالي عبدالله بن عامر ، كما ذكرنا ذلك سابقا ، ثم طلبا من الوالي الامان ، فكان لهما ما ارادا . ثم ثارا ثانية سنة ٤٦هـ . ويلخص الطبري هذه الثورة بقوله « وفيها [في سنة ٤٦] خرج الخطيم وسهم بن غالب ... فحكما ... [و] لما ولي زياد خافه سهم بن غالب .. والخطيم ـ وهو يزيد ابن مالك الباهلي ـ فاما سهم فخرج الى الاهواز فاحدث وحكم، ثم رجع فاختفى وطلب الامان ، فلم يؤمنه زياد ، وطلبه حتى اخذه وقتله وصلبه على بابه . واما الخطيم فان زيادا سيره الى البحرين ، ثم اذن له فقدم ، فقال له : الزم مهرك ، وقال لمسلم بن عمر : اضمنه ، فابى وقال : ان بات عن بيته اعلمتك . ثم اتاه مسلم فقال : لم يبت الخطيم الليلة في بيته ، فامر به فقتل، والقي في باهله (٧١) » .

٢ ـ ثورة قريب وزحاف سنة (٥٠) هـ .

حدثت هذه الثورة حينما كان زياد غائبا عن البصرة ، وهو في الكوفة ، ونائبه على البصرة سمرة بن جندب . وقد قام بهذه الثورة « قريب » و « زحاف » وهما ابنا خاله(٧٢) .

خرج هذان مع اصحابهما ليلا ، ومرا ببعض القبائل ، وقتلوا بعض الاشخاص وبعض الشرطة(٧٣) ، ثم تفرقوا في مساجد الازد(٧٤) . ثم اخذوا يدخلون في المساجد ، ويقتلون الناس . قال شاهد عيان ممن كان في احد المساجد : « ما شعرنا وانا لقيام في المسجد حتى اخذوا الابواب وحكموا [اي نادوا بشعارهم المعروف : لا حكم الا الله .] ، ومالوا على اهل المسجد يقتلونهم، فوثب القوم الجدر وسموا الى الابواب ، وصعد رجل فجعل ينادي : ياخيل الله اركبي ، فصمدوا اليه فقتلوه حتى اذا لم يبق في المسجد الا قتيل وهرب من هرب خرجوا يحكمون في السكة ... (٧٥) » . ثم مضى القوم في طريقهم فلقيهم رجل اوهموه انهم من الحرس فلما اقترب منهم قتلوه(٧٦) . ثم تفرق هؤلاء الى عدة فرق كل ذهب الى مكان « ... وخرج على قريب وزحاف شباب من بني علي وشباب من بني راسب ، فرموهم بالنبل . قال قريب : هل في القوم عبدالله بن اوس الطاحي ؟ وكان يناضله ، قيل : نعم . قال : فهلم الى المبارزة فقتله عبدالله وجاء براسه ... (٧٧) » . وفي هذا الوقت وصل زياد الى البصرة ، واستطاع ان يقبض على من بقي من الخوارج الذين اشتركوا في هذه الثورة ، وذلك انه خطب في اهل البصرة قائلا : « يا اهل البصرة ، والله لتكفني هؤلاء ان لابدان بكم ، والله لئن افلت منهم رجل لا تاخذون العام من عطائكم درهما ،... فثار الناس بهم فقتلوهم (٧٨) . » . والظاهر ان هؤلاء الخوارج استعملوا كثيرا من العنف ، وسفك الدماء ، وقتلوا كثيرا من الابرياء ، واصبحت اعمالهم هذه مستنكرة حتى من بعض الخوارج . ويقول مرداس بن ادية ، احد الخوارج ، في «قريب» قائد الثورة ، وفي اعماله « قريب لا قربه الله ، وايم الله لان اقع من السماء احب الي من ان اصنع ما صنع ... (٧٩) » .

في رايي ان اعمال الخوارج هذه تعد من قبيل المغامرات ، الا انها ليست غريبة على سلوك الخوارج الذين كانوا لايتحرجون من القيام بهذه الاعمال وامثالها ، وهي اعمال ربما دلت على ثبات على المبدا . ذلك المبدا الذي اعتقدوا فيه انهم وحدهم على حق ، وان غيرهم ، من المسلمين ، على باطل ، الامر الذي ادى الى استعمال الشدة والعنف مع اعدائهم(٨٠) .

يقول الاستاذ « فلهاوزن » عن علاقة زياد بالخوارج عموما ، وعن انواعهم واعمالهم « اما الخوارج فكانوا مختلفين فكان منهم اهل ورع وديانة ، وكان منهم متطرفون قليلوا المبالاة بالمباديء ، في غريزتهم ميل الى سفك الدماء ، ولم يتعرض زياد الى اهل الورع منهم ، بل ضرب على أيدي المجرمين ، ولم يقتل الا بعض الثوار والمجرمين الذين جيء بهم اليه وقام الدليل على اجرامهم . وهو لم يلجا الى المذابح الرادعة ... ، اما ما يروى من افعال زياد خلافا لذلك فيجب ان يعتبر تشنيعا مفرضا (٨١) » وعلى كل حال ، فقي اعتقادي ، ان زيادا كان يريد ان يوطد الامن والنظام في منطقة البصرة بطرق سلمية ما استطاع الى ذلك سبيلا .

---

(٦٨) ايضا ، ص١٠٠٦ . (٦٩) ايضا ، ص٩٨٥ .
(٧٠) ايضا ، ص٩٨٥ . (٧١) تاريخ الرسل والملوك ، ٥/٢٢٨
(٧٢) ايضا ، ص٢٣٨ .
(٧٣) اليعقوبي ، المصدر السابق ، ص٢٠٧ .
(٧٤) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٣٧ .
(٧٥) ابن خياط ، خليفة ، تاريخ خليفة بن خياط ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٦٧) ، ص٢٠٧ . (٧٦) ايضا ، ص٢٠٨ .
(٧٧) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٣٨ .
(٧٨) الطبري ، المصدر السابق ، ص٢٣٨ .
(٧٩) ايضا ، ص٢٣٨ .
(٨٠) لا مجال للحديث هنا عن مبادىء الخوارج ، وعن ارائهم في السياسة وغيرها ، وهذه المبادىء والاراء مبسوطة في كتب التاريخ والعقائد الاسلامية .
(٨١) تاريخ الدولة العربية ، ص١٢٢ .